

اهباء لذكرى

اغناطيوس كراتشكوفسكي

١٨٨٣ - ١٩٥١

بقلم الاب يوحنا صريان اليسوعي

مؤخراً النبأ المومع بوفاة اغناطيوس جوليانوفتش كراتشكوفسكي
 وصلنا الذي كان من اكبر المستشرقين وارسهم اناجاً وشرأ بالروسية
 لما يتعلق بالادب العربي وخصوصاً الادب العربي المصري وتاريخ
 الدروس العربية في روسيا .

وُلد في « فيلنو » في ١٦ اذار سنة ١٨٨٣ وانهى دروسه في مسقط رأسه
 ثم التحق سنة ١٩٠١ بمعهد اللغات الشرقية في جامعة بطرسبرج وظل فيها
 حتى سنة ١٩٠٥ . وهناك تتقف على يد علماء روسين ماهرين نظير ميدنيكوف
 (Miednikov) ، وشيد ، (Schmidt) ، وبرتولد (Bartold) ، وكثيرين
 غيرهم خصوصاً البارون روزن (Rosen) ، الذي ساء في احد مؤلفاته « مؤسس
 المدرسة الجديدة للدروس الشرقية في روسيا » قبل الثورة السوفياتية . وتحت
 ارشاد هذا العالم الكبير ، يتابع كراتشكوفسكي دروسه وابجائه حتى تموز
 سنة ١٩٠٨ ، حيث انتدب للذهاب الى الشرق في بعثة علمية للاطلاع عن
 كنب على اللهجات العربية الحية وعلى الادب العربي وثقافته وخصوصاً للاتصال
 بتعليم الادب العربي الذي باشر به معهد الآداب الشرقية في جامعة القديس
 يوسف في بيروت والاتصال ايضاً بالحركة العلمية في المعهد المذكور .

وروى كراتشكوفسكي في بيروت منذ تموز سنة ١٩٠٨ حتى تموز
 سنة ١٩١٠ يتبع دروس تاريخ الادب العربي التي كان يلقبها الاب لويس
 شيخو وتاريخ محمد بواسطة الاب هنري لامنس . يدرس اللهجات العربية

على الاب لويس روتزفال (Ronzevalle) والبرالي على الاب يولس جيون (Jouon) ، ويصحح اغلاط الطبع في ديوان الاخطل وهكذا يساهم مع الاب صالحاني في نشر ديوان الشاعر .

ويحفظ كراتشكوفسكي حتى آخر حياته ورغم كل الصعوبات السياسية تذكراً ونياً لاساتذته في جامعة بيروت وسيبقى على اتصال بالجامعة المذكورة ويسر ، في مزقاته ، بان يدح اساتذته القداما . كما تشهد بعض مقاطع من كته التي سنتكلم عنها بعد قليل .

- ويغتم كراتشكوفسكي فرصة إقامته في الشرق ليزور لبنان وسوريا وفلسطين ومصر ، ثم يصبح احد اعضاء لجنة المجتمع الروسي المسمى الفلسطيني التي كانت تعضد وتؤمن مدارس الشرق الادنى التي أسسها وجاد عليها القياصرة بالهم وعنايتهم .

هذه الاقامة والرحلات في الشرق أفادت كراتشكوفسكي معرفة كاملة للعالم العربي وجملته واحداً من المستشرقين الروس الأكلين - وتشهد بذلك قصة احد مسأحي الاحذية المصريين ، وقد اخبرها كراتشكوفسكي ذاته : فبعد ان حاول ان يزور مكتبة تيسور باشا وكان عذا غائباً اذاك ، وقف في احدى المحطات من ضواحي القاهرة ، ينتظر وصول السكة الحديدية ، فاخذ يتحدث الى احد مسأحي الاحذية واظهر له الأسف على تركه مصر الى روسيا دون ان يتمكن من مشاهدة مكتبة الباشا : « علي ان ارجع الى بيتي في روسيا ، لانني روسي . فضحك المسأح المشعوز واجاب : « انت لست فرنجي ولا مصري ، انت سوري . عرفت هذا من لهجتك . . . مع السلامة وسنلتقي في الشام . » وما اخفى كراتشكوفسكي السرور الذي شعر به لدى سماعه حكم المشعوز المصري على معرفته بالعربية .

نال كراتشكوفسكي الاعجاب عندما قدم اطروحته في ٣٠ ايار سنة ١٩١٥ ، وتقل بعد ذلك من مهنة التعليم في جامعة بطرسبرج الى مقاعد

التدريس في المعاهد الشرقية المختلفة ثم عُيِّن عضواً في أكاديمية العلوم وفي نشرحات
العلمية للاتحاد السوفييتي الذي انتدبه مرات الى بعثات في جامعات الاتحاد
السوفييتي نفسه .

وقد واصل النشر منذ سنة ١٩٠٤ حتى وفاته دون انقطاع . وقد نشر
فهرست كتبه في طبعة جديدة سنة ١٩٤٩ وكان يحل ٤٣١ اسماً لمؤلف وذكّرت
فيه مؤلفاته الاخيرة المتعلقة بالرؤم العربية وقد ظهرت بالروسية في المجلة السنوية
المدعوة : « الرقيم الشرقي » ، تلك التي تديرها زوجة كراتشكوفسكي نفسها
العالمة بالكتابات القديمة .

وزد على ذلك مؤلفاً ظهر سنة ١٩٥٠ تحت عنوان « دروس في تاريخ
العربية في روسيا » (٢٨٨ ص . موسكو - لينغراد ، بالروسية) - فبعد مقدمة
هذا الكتاب (ص ٥ - ٩) ، يوجد بحث مخصّص « لما قبل تاريخ العربية في
روسيا » حتى اواخر الجيل الثامن عشر يبحث فيه المؤلف عن كل الدروس
التي لها علاقة بالعربية تلك التي ازدهرت في كياف وموسكو وبترسبرج . اما
موضوع الكتاب فيقسم الى قسمين :

- ١) العربية في روسيا (ص . ٧٣ - ١٩٨) اي قبل الثورة السوفييتية .
- ٢) العربية في الاتحاد الروسي الاشتراكي السوفييتي من ١٩١٧ الى ١٩٤٨
(ص : ٢٠١ - ٢٦٩) مع تعليق وفهرست (ص ٢٧٣ - ٢٩٨) .

وقد اهدى هذا الكتاب « الى ذكرى مرور مائة سنة (١٨٤٩ - ١٩٤٩) اذ
على مولد المشرق « فيكتور رومانوفتش روزن » مؤسس المدرسة
الجديدة للدروس الشرقية قبل الثورة ، ذلك الذي احبّه مار (Marr) ، وبرتولد
والدنبورغ (Oldenbourg) ، وكوكوتوف (Kokoutsov) وتشفقوا عليه .

لا شك في ان بطلي الاسترات العربي في روسيا كانا فران (Fraehn) في
النصف الاول من الجيل التاسع عشر (١٧٨٢ - ١٨٥١) والبارون روزن
في النصف الثاني منه (١٨٤٩ - ١٩٠٨) - ولكن عندما يذكر
كراتشكوفسكي اسماء تلاميذ هذين العالمين يسل اسم الذي له حتى الصدارة .
ويكفي ان نلقي نظرة على تعليق المصادر في اخر الكتاب (٢٧٣ - ٢٧٩)

لنتيقن من ان مؤلفات كراثشكوفسكي ذاته لها المكان الاوسع : فهو ذاته المؤرخ الكبير للدروس الشرقية وخصوصاً العربية منها في اللغة الروسية.

ولا بد لنا من كلمة عجيبي في اطروحة كراثشكوفسكي في جامعة بطرسبرج ، اذ انها قد اثارت انتباه العصر حينذاك وموضوعها : «ديوان ابي الفرج محمد بن احمد الصائفي الملقب بالرواؤا الدمشقي ٣٩٠ هـ ١٩٩ م.» (بتروغراد ١٩١٤ - ١٩٢٤ - ١٥٣ صفحة من النص العربي و٣٧٨ صفحة بالروسية). ولم يعجب العلماء بالدقة التي راققت طبع الثلاثمائة والعشرين مقطوعة شعرية للرواؤا بقدر ما اعجبوا بالدراسة التي راققتها وعنوانها : «لوازم الإبداع الشعري» حيث حلل كراثشكوفسكي تكنيكية مهنة الشعراء في عصر الحمدانيين في حلب ، عصر المتني. (راجع الاب شيخو في المشرق ١٢/١٩٣٤ ص ٤٧٥).



وهناك مؤلف آخر لكراثشكوفسكي لا شك في ان قراء هذه المجلة يهتسون له. وهو كتاب صغير الحجم لم تمض على نشره بعض سنوات الا وصحح واعيد النظر فيه وطبع ثلاث مرات متواليات. ولقد نشرنا في «شذرات جامعة القديس يوسف» (١٩٤٤/٢٦ - ١٩٤٦/ص ٩-١٣٨) كلمة من درس طويل عنه بمناسبة طبعه للمرة الثانية. وعنوان وهذا الكتاب : «فوق المخطوطات العربية» يوحى لنا الشيء الكثير . ونفضل على هذه الترجمة الحرفية لكلمات العنوان الاولى ترجمة اخرى تعبر عن فكرة الكاتب : «انحنا، على المخطوطات العربية - ذكريات كتب واشخاص.» نشرته اكلادمية العلوم السوفياتية - موسكو - لينينغراد - الطبعة الاولى : ١٩٤٥ - والثانية : ١٩٤٦ ، ١٧٠ ص - والثالثة : ١٩٤٨ - عدد الصفحات ٢٠٢ مع ١٣ رسماً منفرداً -).

عندما ظهر الكتاب في طبعته الاولى سنة ١٩٤٥ كان يجوي خمسة فصول كتبت اثناء الحرب من ١٩٤١ الى ١٩٤٣ بعيداً عن المكاتب السوفياتية وعن مكتبة المؤلف الخصوصية التي كان قد نقلها الى صناديق حراً منه عليها .

إذا فقد كان من المستحيل عليه ان يراجع المصادر . ولكن لما نقلت احرف وعاد كراشكوفسكي من جديد الى الجارس الى « الكتب والمخطوطات » اصدقائه القداما . الاعزاء . « زاد على كتابه فصلين جديدين (الثالث والسبع) ظهرا في الطبعة الثانية سنة ١٩٤٦ ، ولم تلبث الطبعة الثالثة ان ظهرت نظراً للنجاح الذي لاقاه الكتاب . واننا حين نعرضه الان نذكر صفحات الطبعة الثانية وبين هلالين صفحات الثالثة .

فالسبعة فصول التي تؤلف الكتاب هي بالاحرى « تذكارات » سبع ، متنوعة الالوان . فهي حيناً فنية ، وحياناً تعنى بسرود اخبار وتخطيط رسومه ، أمثلها البساطة والعذوبة . فاذا بها تجمع حول مراكز الدروس العربية وتحت عناوين غامضة معلومات جزيلة النفع عن الكتب والمخطوطات والعلماء حتى وعن افراد الناس العاديين كاولئك القرويين اللبنانيين مثلاً الذين حظي الكاتب الروسي بماشرتهم مدة رحلته العلمية الى الشرق . ولقد استدرك هو الامر بذاته فقال ان في كتابه « كثيراً من العاطفة والشعر . » ولكي نعلم انه قال الصواب يكفي ، على ما اعتقد ، ان نقرأ المقطوعة الاخيرة من الفصل الاول التي خطها سنة ١٩١١ - حيث نسمع الى الحوار بينه وبين مولاته المخطوطات . ولا يخشى كراشكوفسكي في هذا انتقاداً لانه يعيش الآن بالتذكار كتابه ويلقيه بين يدينا كما عاشه يوماً بعد يوم مدة اربعين سنة « انحناء » على المخطوطات العربية . وهذه باليجاز ، عناوين ومحتويات تلك التذكارات السبع .

يدور الفصل الاول ص ٧ - ١٤ (٩ - ١٧ من الطبعة الثالثة) حول مخطوطات مكتبة جامعة بطرسبرج تحت اشراف ا. ا. بتشكوف (Btchkov) المدير الشير (١٨٥٨ - ١٩٤٤) ويخبرنا عن علاقته بالمخطوطات العربية منذ ١٩٠١ حتى يومنا الحاضر . وفيه ايضاً إلماع الى مخطوطة من الحوري انطون البغدادي في الجيل التاسع والى مخطوطتين اخريين من كمال الدين (الجيل الثالث عشر ثم الخامس والسادس عشر) مع بعض تعليقات على ابي العلاء المعري ، ثم يتكلم عن شخص لبناني الاصل من الجيل التاسع عشر ، اسمه رزق الله حنون ،

المعروف بمخنته ودراته اليازية وخصوصاً بنسخه لمخطوطات غنية.

اما في الفصل الثاني ص ١٥ - ٣٧ (١٨ - ١١) فيتكلم كراتشكوفسكي عن « تشرده في الشرق » (بين بلدان الشرق) وقد دام سنتين ١٩٠٨ - ١٩١٠ . ويمتد الحديث بالكاتب في هذا الفصل حتى سنة ١٩٣٢ . ويفيض حديثه ابتهاجاً و سروراً حين يتكلم عن اقامته في لبنان وخصوصاً عن تفضيته فصلي الشتاء . في جامعة القديس يوسف التي هي ، كما يقول ، نصف فرنسية ، ونصف عربية . « فيرسم لنا مجمل صارخة اللهجة شديدة الصدق ملامح اساتذته القدماء في المهدي الشرقي التابع للجامعة . فليُسح لنا بترجمة بعض اسطر منها : « لامنس ، مؤرخ لاعم ، محاضر ذو وقع ، بلجيكي الاصل . روتفال الفرزني مدرس اللهجات الشرقية بدقة ، يجوع كثرأ ضخاً من الفكاهات ، ولكنه فريسة الم داخلي مستمر . بقي الصديقان المجانبان دائماً : شيخو وصالحاني . فالاول مرديني الاصل من بلاد ما بين النهرين العليا ، بطبي . في الظاهر ولكنه ذو مزاج سريع وترحيب بشوش ، يحل في يديه دائماً ملفآت مطبعية من « المشرق » . مغروس كالاسفنجة في الادب العربي . دائماً على استعداد ليجيب بتقال على كل سؤال . وصالحاني : وجه شامي مهيب ، له معرفة دقيقة بالشعر « والف ليلة وليلة » . قد يتابع حتى التسعين من عمره بجوئه المتعلقة باشمار عزيزه الاخطل رفيق يوحنا الدمشقي في صباه . ويتابع كراتشكوفسكي تخطيط رسومه « اولئك الذين سطعوا كالكواكب بالنسبة الى اسلافهم » ، فيبدأ اولاً بالمشرقين الغربيين الذين مروا بالشرق : ليتبرسكي (Litsbarsky) غوتكيل (Gottkheil) ، نالينو (Nallino) ، پيترس (Peeters) ، من مؤسسة هولند ، الاوربي الاول الذي سبق فأدرك نبوغ مار (Marr) وكان المعجب الكبير بدستريشكي اذ انه قرأه بلفته الروسية . ثم يتكلم بعد هذا عن الشرقيين : زيدان ، قسطنطين بين ، محمد كرد علي وغيرهم . ويعود باسهاب في هذا الفصل وفي الفصول التالية الى ذكر الاب لويس شيخو والى اثره الكبير في خلق « المكتبة الشرقية » ، والى منشوراته ونظراته الثاقبة في صحة الآثار او فادها . ويكرس كراتشكوفسكي فصلاً كاملاً في آخر كتابه عن الاب صالحاني ، يعود اليه

في حينه. ولا ننسى في هذا الفصل الفني الفائدة كلام المؤلف عن مكتبة بطريرك الشام الارثوذكسي غريغوريوس الحداد ، تلك المكتبة التي ، كما يقول ، انتقلت الى موسكو . فانه ، مدة اقامته في بيروت ، حاول عبثاً ان يسبح له البطريرك الارثوذكسي بالاطلاع على مخطوطات البطريرك مكارايوس وابنه يولس الحلبي ، اذ ان هذه المخطوطات تحوي قصة الرحلة التي قام بها مكارايوس الى روسيا في الحيل الثامن عشر . ولكن عندما اقام كراتشكوفسكي في بطرسبرج كلف بعض وترتيب تلك المخطوطات التي حاول ان يطلع عليها في الشام ، وكان البطريرك غريغوريوس الحداد قد قدمها هدية للقيصر .

وموضوع الفصل الثالث ص ٣٨ - ٥٥ (١٥ - ٦٥ في الطبعة الثالثة) يدور حول « الكتاب العربيين والمستشرقين الروسيين . » وهو واحد من الفصلين الجديدين اللذين زيدتا في الطبعة الثانية ، وهذا ما يشرح لنا الاهتمام الذي يبديه اليوم الاتحاد السوفياتي بالعالم العربي . يتكلم فيه كراتشكوفسكي عن كتاب العربية المعروفين في لبنان وفي مصر نظير امين الرحباني الذي رجع من اميركا الى بيروت يوم كان فيها الكاتب الروسي . يتكلم عن « الفلاح » الارستقراطي في القاهرة ذي المكتبة الكبيرة محمد تيور باشا . ويطول ايضاً كلامه عن ميخائيل نعيمة البكتناوي الاصل ، الذي عاشر من اميركا الى بلاده وكان على مراسلة مع كراتشكوفسكي الذي كانوا يدعونه في لبنان وسوريا وفلسطين « المشرّد الروسي » او « غنطوس الروسي » (اغناطيوس الروسي) . الى ان انتهى به الكلام الى المدارس المتعددة التي كانت حكومة القياصرة تغذيها في الشرق الادنى قبل الحرب العالمية الاولى - ويظهر من هذا كله ان هذا الفصل يخالف قليلاً موضوع الكتاب الاساسي .

وينتقل بنا الفصلان الرابع ص ٥٦ - ٧٩ (٦٦ - ٩٤) والخامس ص ٨٠ - ١١٥ (٩٥ - ١٣٧) الى لينينغراد فنسمة بكلنا عن المتحف الاسيوي فيها وعن مكتبة الجامعة .

اما الفصل السادس ص ١١٦ - ١٣٩ (١٣٨ - ١٦٥) فيحتوي على

ذكريات تمتد من سنة ١٩٢٨ الى ١٩٤١ . وعنوانه غامض وهذا هو : « نحو الصياد الطريدة ذاتها تسرع . » وهذا المثل الروسي معناه ان الصياد الماهر يجد دائماً طريدة يعطادها . وهنا يتكلم الكاتب عن بعض مخطوطات وايشا . ذات قيمة كبرى وُجِدَت ومصدرها اليمن « بلاد ملكة سبا » ، وسرغديان ولا ينهي حديثه قبل ان يجربنا عن كتاب القرآن بالحظ الكوفي كان في حوزة عجز سنة ١٩٣٦ . فطالما اخذت الثمن الذي عُرض عليها انسجبت متخفية لثلاث يشتهر امرها وتنازاد .

اما الفصل السابع ص ١١٠ - ١٥٦ (١٦٦ - ١٨٥) الذي هو الاخير في الطبعين فيحل عنواناً يدل على روح الكتاب باجمعه : « رقعات الاجداد . » لقد أفرغ الكاتب من قلبه في هذا الفصل اكثر مما في باقي ذكرياته . في المقطع الاول يذكر كرايشكووسكي « ريسك (Reiske) المتقطع النظير ، شهيد الادب العربي » (١٧١١ - ١٧٧٤) الذي كان اول من تنبه الى كتاب الحماسة للبحري ، ويذكر ايضاً الاب لويس شيخو « استاذ العربية واستاذ » الذي اعاد طبع ديوان الحماسة نقلًا عن المخطوطة الوحيدة الموجودة في لايد (Leyde) - وفي المقطع الثاني يجي تذكر الاستاذين الروسيين الشهيرين : كوكلس الناعم (doux Guirgas) (١٨٣٥ - ١٨٨٧) والبارون روزن (Rosen) (١٨٤٩ - ١٩٠٨) - ونستطيع ان نقول ان المقطع الاخير هو مكرس لدرس شخص واحد :

عنوان هذا المقطع هو : « نصف جيل مع مخطوطة واحدة ، » خصصه كرايشكووسكي كله بذلك الذي جعل من تلك المخطوطة الواحدة موضوع مجوته ورجاته مدة خمسين سنة ، ألا وهو الاب انطون صالحاني . فيخير المؤلف عن النشاط الذي بذاه الاب صالحاني في خدمة الاخطل الشاعر بالتفاصيل الدقيقة . كان العالم الانكليزي رايت (Wright) يقضي فجه ، سنة ١٨٩٩ ، دون ان يستطيع سيلاً الى طبع آثار شاعر بني امية . « اذ كان الاب صالحاني مشهوراً في العالم الغربي . كلنوي . متين وعارف دقيق بآثار الادب الوطني » فوتمت بين يديه

النسخة التي نقلها رزق الله حسن ندي تكلفنا عنه سنة عن مطبوعة بطرسبرج. فاذا بعثنا المطبعة الكاثوليكية في جامعة القديس يوسف وبناكتاتبا نتحرك للعمل والطبع ، وارسلت الاوراق المطبوعة في بيروت الى البارون روزن في بطرسبرج ليقابل بين النصين ، اذ لم يكن في ذلك الحين تصوير شبي ولا إعادة مخطوطات . وهكذا اظهرت الطبعة الاولى في بيروت بسرعة فائقة - وهنا يحلو لكراتشكوفسكي ان يعيد مثله الروسي : « الصياد الماهر يجد ما يصطاده » ، وبالفعل لقد عُثر بعد ذلك على مخطوطات تحوي آثار الشاعر ذاته. ففي سنة ١٩٠٥ نشر الاب صالحاني صورة مخطوطة بغداد طبعا على الحجر.

وفي سنة ١٩٠٧ طبعت المخطوطة التي وجدت في اليمن بمناية الدكتور غريفيني (Griffini) في المطبعة ذاتها وبالنوع ذاته - واخيراً في سنة ١٩٣٨ كان الاب صالحاني ، وهو في الحادي والتسعين من عمره ، يكرس كتباً تذكارياً بثلاثة وستين صفحة « للمخطوطة الجديدة لديوان الاخطل » التي وجدت في طهران وكان كراتشكوفسكي نفسه قد هدى صديقه القديم اليها . وهنا يعرض المؤلف الروسي بكلام قصصي رائق عمّا قلناه بايجاز ولا ينسى ابداً كيف التقى للمرة الاولى بالاب صالحاني « ذي العينين الرقادتين » فيخبر عن علاقاتها الطويلة ومراسلاتها الذميمة الجميلة بعد ذلك . وعندما اعلنت الحرب الكونية الثانية وانقطعت المراسلات ، ما برح كراتشكوفسكي يظن ان صديقه القديم توفى بعد ان قارب المائة من السنين. ولكن الاب صالحاني ، ذلك العالم المتعبر الجليل القدر ، مات في العاشر من آب سنة ١٩٤١ وهو في الرابعة والتسعين . وعلى كل فالمتشرق الروسي لم يخطأ حين قال عنه انه قضى نصف عمره في ملازمة مواطنه الاخطل ، شاعر بني امية ، وملازمة مخطوطة لينغراد الحاوية اثار الشاعر المذكور.

لقد حافظ كراتشكوفسكي في طبعات كتابه الثلاث على صفحتي الخاتمة التي تحمل عنواناً مجرّوف لاتينية : « الراحة الدائمة » (Requiem Aeternam) لقد كتبها سنة ١٩٤٣ تذكراً مؤثراً للروقي . . .

هذه الامثلة الوجيزة التي قدمناها تكفي لان تعطي فكرة عن هذا الكتاب الزاخر بالفائدة والحياة . وكم من منافع كان يوسعنا بعد ان نلتقطها خصوصاً عن العلماء الروسيين الذين لم نذكر الا بعض اسماء منهم . ففي اخر الكتاب ، بجانب الشروح والمصادر ، توجد اسماء اعلام واسماء كلمات عربية مقرونة بتعليقات ترمي الى افادة عدد اكبر من القراء باللغة الروسية .

